«الجبرتي»
والصراع الفكري في عصره

د. نشأت الخطيب

I الجبرتي مؤرخا على مفترق الطرق :

ان المسيرة التاريخية للمؤرخين المسلمين بدأت ، منذ القرن الثاني الهجري ، مع الاهتمام الاول للفقهاء والمحدثين ، في بدء تسجيل انتشار الدعوة الاسلامية وتغطية امتدادها الواسع على رقعة كبيرة من القارات ـ آسيا وافريقيا واوروبا ـ . وهذا ما يفسر لنا لماذا كانت الانطلاقة التاريخية الاولى ، انطلاقة دينية ، بدأت منذ بدأ تدوين القرآن والسنة ، ومن ثم تدوين الحروب الاسلامية المتمثلة بغزوات الرسول وفتوحاته وفتوحات الخلفاء الراشدين والفتوحات التي تمت في عهد الدولة الاموية .

واذا كانت بداية المسيرة التاريخية ، المتمثلة بالكتابات الهائلة التي تركها المسلمون ، قد تركت نمطا معينا في الكتابات التاريخية سمي بالمنهج الاسلامي ، فقد تمثل هذا المنهج بصور شتى من الكتابات التاريخية عرفت بتاريخ الحوليات وتاريخ الطبقات وتاريخ الدول والانساب . فأين يقف الجبرتي من هذا المنهج وتحت اي صورة تندرج كتاباته ، وهل يعتبر الجبرتي في عداد المؤرخين التقليديين ام هو مؤرخ متجدد ؟ كل هذه الاسئلة تتوضح لدينا الاجابة عنها عندما نضع الجبرتي في عصره ونتصفح تاريخه ونتعرف الى منهجيته ؛ فالجبرتي مؤرخ مصري ولد عام (١١٦٧ هـ ـ ١٢٤٠ هـ) اي في سنة (١٧٥٤ ـ ١٨٢٥ م) وقد ظهر كمؤرخ عملاق في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، وعلى ذلك يكون معاصرا لواقع مصري اعتبر عصر انتقال من حال الى حال ، وهو عصر الثورة المصرية ؛ وقد عالج الجبرتي الاحداث التي مرت على مصر في هذه الفترة معالجة دقيقة باسلوب تحرى فيه الحقيقة وافاض فيها في فترة عصيبة من حياة مصر كانت تجتازها وتعتبر منعطفا خطيرا في حياة شعبها في ذلك الوقت .

فالاحداث المتتالية والمتلاحقة بسرعة ، منذ اشتداد الخصومات بين البيوت المملوكية الكبيرة ومحاولة الدولة العثمانية استعادة سيطرتها على مصر ، حتى نزول الحملة الفرنسية ارض مصر عام ١٧٩٨ م ثم خروجها بعد وصول حملة انجليزية اخرى وما تلا ذلك من احداث حتى

تولى محمد علي حكم مصر سنة ١٨٠٥ ، والسنوات الاولى من حكمه بما امتلأت به من حوادث جسام ، كنزول الحملة الانجليزية على مصر في سنة ١٨٠٧ ، ومذبحة المماليك ، وبدء الحروب الوهابية عام ١٨١١ م ، والغاء نظام الالتزام ، وبدء تطبيق سياسة الاحتكار وغيرها . كل هذه الاحداث مجتمعة سارعت في اشتداد نبض الحياة المصرية ، في تلك الفترة المفعمة بالاحداث ، الحافلة بالتطورات الخطيرة في حياة الشعب المصري . ولا يمكن ان تمر كل هذه المنعطفات الخطيرة والاحداث التاريخية المهمة دون ان يظهر من يتصدى لتتبعها ، ويبادر الى تسجيلها وربطها بعضها ببعض ، حتى يظهر في التاريخ كتاب متكامل الحلقات وافر المعلومات على نحو ما ظهر عليه كتاب الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) .

وشخصية الجبرتي ، بتعدد جوانبها العلمية وتباين عناصرها المتكاملة ، تبرزه رجل دين ودنيا اخذ من كل شيء بطرف ، واسع الافق ، يجتذبه بصفة خاصة ما يصح ان نسميه « الشؤون العامة » .

واذا كان الاحتلال الفرنسي لمصر حدثا عابرا ، فلقد امتد العمر بالجبرتي ليشاهد محمد علي يتعهد ويتولى تنفيذ ثورة اقتصادية واجتماعية ، رسم الفرنسيون خطوطها . ولم يقتصر الحال بالجبرتي على أن يعيش في خضم هذه التقلبات غير العادية . فقد منح المقدرة على ادراك مغزاها ، واوتي المقدرة العلمية على تسجيلها باحساس صادق مرهف يتيح لمن يطلع على مجرى الاحداث التي سجلها تفاعلا مع تجربته ، ويتجاوب معه عاطفيا وفكريا . لانه يرافق بصيرته النافذة وهو يراقب ويسجل جميع المراحل المتعاقبة من تاريخ مصر طوال السنوات التي عاشها . (١)

وكان الجبرتي يملك موهبة سيكولوجية بعيدة الشفافية مكنته من استيعاب حقيقة الدخلاء الذين اجتاحوا بلاده او حكموها .

فالمماليك ارقاء دخلاء اتوا الى مصر من القوقاز . والعثمانيون دخلاء بمن فيهم الانكشارية الذين كانوا يروضون باستمرار . وكذلك الحال بالنسبة للحكام المتتالين كمحمد علي الدكتاتور ذي البأس . والفرنسيون دخلاء اتوا من بلاد الفرنجة كما كانوا اشد تهورا في عدوانهم ، من المستعمرين اللاحقين ، في اعتدائهم على الحرمات والمقدسات الاسلامية واستهانتهم بالتقاليد والعادات المتوارثة . ان الجبرتي قد علم حقيقتهم جميعا . وتجلت شفافيته السيكولوجية في ادراكه نقاط القوة والضعف في سلوك الفرنسيين غزاة مصر .

وكان الجبرتي ــ مثل توسيديد ، اليوناني القديم ــ مؤرخا وقع عليه ، بالمثل ، عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حياة الحضارة التي نشأ بين ذراعيها . (٢)

---

(١) الدكتور احمد عزت عبد الكريم ــ عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث ــ المقدمة ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) من كلمة المؤرخ البريطاني ــ آرنولد توينبي ــ التي القيت بالنيابة عنه في ندوة الجبرتي في القاهرة (١٦ ــ ٢٣ نيسان) ٧٤ .

فالجبرتي لم يقتنع بالعلم التقليدي الذي كان شائعا في ذلك الوقت ، والذي كان الازهو موطن استقراره ، كالفقه والحديث وسائر علوم الدين واللغة ، ولكنه اضاف الى ذلك معرفة عميقة بطائفة من العلوم الوضعية كعلوم البيئة والفلك والطب والحساب ، تلك العلوم التي اعتبرت حديثا من العلوم التي يجب ان يدركها المؤرخ لفهمه تقاطع الاحداث التاريخية وتفسيرها العقلاني العميق . والذي ساعده على الالمام بكل هذه العلوم كونه ابن الشيخ حسن الجبرتي ابرز العلماء المهتمين بهذه العلوم في عصره . والى جانب هذا التراث العلمي ورث الجبرتي مكانة بارزة في المجتمع المصري حيث نشأ في بيئة مترفة ، كان فيها العلماء عنصرا عظيم الاهمية في حياة مصر المماليك والحاكم العثماني معا .

ومحور كتاباته تركز على رفض ادعياء الصوفية واصحاب الكرامات والولاية ، ذلك لان « العقلانية » التي كان يصطنعها في مدارسة العلوم الوضعية او التطبيقية ، التي ورثها عن أبيه ، تنأى به عن الاعتقاد بمثل هذه الاشياء . واغلب الظن انه كان من اهل السنة ، المتمسكين بمبادئها، لذلك حز في نفسه ان يشهد موكب الامراء السعوديين يطاف بهم في شوارع القاهرة مصفدين بالاغلال فيغضب قائلا : « كيف تقتلون اناسا يقولون لا اله الا الله » ؟ . (٣) لقد تأثر الجبرتي بالانفجار الوهابي في الجزيرة العربية والانفجار الفرنسي المتمثل بالثورة الفرنسية ، وهذا التأثر كان حافزا له دفعه لمواصلة الاهتمام بتدوين الوقائع والاحداث ، وكان قد بدأ ذلك ، قبل وصول الفرنسيين بعشر سنوات ، حين اتصل به شيخه العلامة الشيخ مرتضى الزبيدي ، صاحب « تاج العروس » ، وطلب اليه ان يساعده على تدوين تراجم المشهورين من رجال المائة السابقة (اي القرن الثاني عشر الهجري) . واستجاب الجبرتي لطلب شيخه وانطلق في مهمته الجليلة ، يجمع مواد كثيرة عن مشاهير ذلك القرن من علماء ومتصوفة واجناد وامراء ، ويقابل المعمرين من الاشخاص المعنيين يسألهم ويدون افاداتهم ، ويتفحص ما وصل الى يده من الكتب والمؤلفات ، والكتابات المنقوشة على الاضرحة والقبور . فرغب بهذا النوع من العمل واتسع امامه مجال الكتابة في هذا الميدان ، حيث تأكد له ان الفصل يكاد يكون متعذرا بين الاحداث والرجال . وبينما كان الجبرتي ماضيا في عمله توفي شيخه الزبيدي ووصله كتاب من مفتي دمشق الشيخ خليل المرادي يسأله ان يبحث في خزانة الشيخ ، ليرسل اليه ما يجده من تراجم ويضيف اليها ما كتبه الجبرتي نفسه . وهنا أدرك الجبرتي انه كان ثالث ثلاثة يشتغلون في هذا المشروع الكبير . **فكان « فن التراجم » المدخل الذي دخل منه الجبرتي الى كتابة التاريخ** والذي تجسد في كتابيه :

١ ــ مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس ــ وصف فيه احوال مصر ايام الفرنسيين.

٢ ــ وعجائب الآثار في التراجم والاخبار ــ وهو تاريخه الكبير الذي سرد فيه احوال البلاد بايجاز حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا . ثم بقدر متزايد من التفصيل حتى

(٣) الدكتور احمد عزت عبد الكريم ــ الجبرتي ، دراسات وبحوث ــ ص ٢٢ ــ ٢٣ .

سنة ١٨٢٠ م أي قبل وفاته بنحو اربع سنوات . (٤)

اما اسلوب الجبرتي في الكتابات التاريخية فقد جعله في عداد المؤرخين المسلمين الذين كتبوا تاريخ الحوليات والذين خلفوا لنا تراثا ينم عن منهجهم واسلوب تفكيرهم ومستوى ثقافتهم . ولم يكن الوقت الذي عاش فيه سوى زمن خيم فيه الركود على الوطن العربي . وسجل في كتابه « عجائب الآثار » تاريخ مصر ، من أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي أصبح فيها المجتمع العربي الاسلامي بوجه عام مستكينا لحالة تبلد عام مقرون بالغيبيات الباعثة على السلبية ولا يلقي بالا للاشعاعات المنبثقة من اوروبا ، وكانت الصلة منقطعة بينه وبين اوروبا الغربية ، فحافظ على تلك المشخصات الوسيطة التي كانت في طريقها الى الانحلال في الغرب ، كالاعتقاد بالتنجيم وقراءة الطالع وفنون السحر . وليس غريبا ، في هذه البيئة التي تسيطر عليها هذه الافكار ، ان تتدهور الكتابة التاريخية خاصة وان معاصري الجبرتي كانوا يعتبرون التاريخ (من شغل البطالين .... واساطير الاولين). ويسجل الجبرتي ان من اسباب تدهور الكتابة التاريخية في ايامه تسرب الكتب التاريخية من البلاد : « فانا لم نر من ذلك كله الا بعض اجزاء مدشتة بقيت في بعض خزائن كتب الاوقاف بالمدارس ، مما تداولته ايدي الصحافيين وباعها القومة والمباشرون ونقلت الى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب واخذ الفرنسيس ما وجدوه الى بلادهم »(٥).

لهذا فان ظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتي كان ظاهرة ضرورية ابرزتها البيئة العلمية التي نشأ فيها والظروف المادية التي احاطت به وهي ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء في عصر الجبرتي أم في غيره .

لقد شغف الجبرتي بالتاريخ الذي هو لديه : « علم يبحث فيه عن معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وانسابهم ووفياتهم . وموضوعه احوال الاشخاص الماضية من حيث هي وكيف كانت » . (٦)

وتندرج في مفهوم التاريخ لديه علوم كثيرة ، فصلها في تنوع صور المادة التاريخية التي خاضها ، منها طبقات القراء والمفسرين والمحدثين وسير الصحابة والتابعين وطبقات المجتهدين وطبقات النحاة والحكماء والاطباء واخبار الانبياء واخبار المغازي وحكايات الصالحين ومسامرة الملوك من القصص والاخبار والمواعظ والعبر والامثال وغرائب الاقاليم وعجائب البلدان . وهو ، في هذه الكتابات ، يبرز اصالة صورة اسلامية بحتة من صور الكتابات التاريخية التي تمثل تقليدا اسلاميا صرفا هو موضوع الطبقات المتمثل بالصحابة والتابعين وتابعي التابعين . والثناء

---

(٤) المرجع السابق ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٥) الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ـ عبد الرحمن الجبرتي مؤرخا ـ ص ٢١ ـ ٣٢ ـ الجبرتي ـ دراسات وبحوث وانظر عجائب الاثار ، ١ ـ ص ٦ .

(٦) انظر عجائب الاثار ـ ١ ـ ص ٢ ـ و ص ٥ .

الذي لقيه على كتابه (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) قوى من عزمه على متابعةمشروعه التاريخي . ولقد وضع هذا الكتاب واهداه الى الوزير العثماني يوسف باشا ، ويدور موضوعه حول الاشادة بالدولة العثمانية والافاضة بسرد احداث الحملة الفرنسية دون ان يذكر شيئا عن اتصاله بالفرنسيين وحضوره حفلاتهم ومشاهدته لتجاربهم العلمية واحاديثه مع العلماء .

وحين نقوم تاريخ الجبرتي نجد انه قد اثار اهتماما كبيرا ، لم يقتصر على المهتمين بتاريخ مصر الحديث من العرب ، بل ان المستشرقين اعتبروه مصدرا رئيسيا على درجة كبيرة من الاهمية ، فمثلا نرى ماكدونالد ـ في دائرة المعارف الاسلامية ـ يذكر ان الجبرتي باعطائه صورة تفصيلية للحياة الشرقية **له قيمة اجتماعية عظيمة** . وقد افاد منه « لين » لهذا الغرض في التعليقات التي وضعها لكتاب الف ليلة وليلة . ومما يجعل كتابه « عجائب الآثار » مصدرا من الدرجة الاولى ، ما تميز به هذا المؤلف من دقة واستقصاء للاحداث والتحفظ في ذكرها . (٧)

وتمتاز كتابات الجبرتي بالموضوعية التي نستشفها من تأكيده انه يكتب للحقيقة والتاريخ: « ولم اقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير او طاعة وزير او امير ولم اداهن فيه دولة بنفاق او مدح او ذم مباين للاخلاق ... لميل نفساني او غرض جسماني » . كما انه ينوه الى انه لم يثبت الا ما وصل علمه اليه وثبت خبره لديه ، وانه لم يخترع شيئا تلقاء نفسه (٨) .

وموضوعية الجبرتي لا تعرض الاحداث صورا باردة ، بل ان كتاباته تفيض بالحرارة التي من ورائها ، نحس عمق انفعاله ، ذلك ان الجبرتي محب لبلده ، يفرح لفرحه ويحزن وينفعل لحزنه ، ولا ينظر الى الاحداث من بعيد ، بل يعايشها ويتأثر بها ، ومما يجعل تاريخ الجبرتي صورة نابضة بالحياة ان تاريخ مصر العثمانية اغنى بكثير من تاريخ غيرها من الولايات العثمانية في الفترة نفسها . وقارىء الجبرتي يلاحق دائما خط الحياة الجياشة التي يصورها قلمه فينتقل ويعيش في الجو الحقيقي لمصر وللعصر . **وقد امتاز الجبرتي عمن تقدمه من مؤرخي مصر بانه لم يقصر اهتمامه على علية القوم والاحداث الهامة لانه اعتنى بالامور الجليلة والتافهة ولم يدع شيئا الا دونه ، بعد ان تحرى عنه ودققه ،** لذلك كان نزيها في الرواية يكشف عن آرائه فيما يعرض له ، فينبسط وينقبض ويسخر ويتهكم ويشتط ويغضب ، الا انه ، مهما حاول الارتفاع عن مستوى عصره ، فقد بقي مشدودا اليه لا يسمو الى النظرة الشاملة ، لا يعرف شيئا عما يسمى بالسياسة العليا . كما نجده يعكس التعصب الديني الذي كان يسود مجتمعه ، وان يكن هذا التعصب قد خفت حدته بمرور الزمن ، نتيجة لما لمسه بنفسه من تفوق الفرنسيين ، المخالفين للمصريين في الدين ، لدرجة انه تمنى في اعقاب الحملة الفرنسية زوال العثمانيين

---

(٧) نفس المرجع ـ ص ٣٥ .

(٨) عجائب الآثار في التراجم والاخبار ـ المقدمة ـ الطبعة الاهلية .

الذين عاثوا في الارض فسادا ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الناس في مصر ، خاصةالفلاحين منهم ، والذين تمنوا « احكام الفرنساوية » . (٩)

اولع الجبرتي بالتغني بالعدل والتشنيع على ظلم الحكام ، وقد عرف العدل الذي يفهمه باقامة الشريعة والرفق بالرعية ، مما جعله يتخذ موقف الناقد لمستحدثات الامور خاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية . وقد تأثر بالصداقة الشخصية والصحبة ، فهو يعلن ميوله الذاتية وايثاره هذا على ذاك .

ويرتبط اثر الحملة الفرنسية في تفكير الجبرتي بما اثارته في آفاق المصريين ؛ بوجه عام ، اذ طرحت امامهم تحديا عنيفا لهم ولمقوماتهم **عندما وضعت امامهم نمطا حضاريا متفوقا نظروا اليه بعين الشك لمخالفته لمألوفهم** ، فاستفج الجبرتي ، ما شاءت له عاداته وتقاليده ، مستحدثات الفرنسيين كانفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من المثل الاخلاقية التي انطبع بها المجتمع المصري ، حيث أبيح البغاء العلني وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال ؛ وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على التقاليد الموروثة ، وتحدت العرف الاسلامي بالاكل والشرب في رمضان وتعاطي المسكرات ؛ وتدخل الفرنسيون في صميم حياة الناس واشتدوا بالارهاب والتنكيل كلما نشبت ثورة او اضطراب (١٠) ورغم ان الجبرتي شارك معاصريه من المصريين شعورهم ازاء الحملة الفرنسية ، فان ذلك لم يجعله يغض الطرف عن بعض المنجزات التي قاموا بها ، وقد اعجبه من الفرنسيين حبهم الزائد للعلم « ولهم فيه امور واحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول امثالنا » .

اما احكام الجبرتي على الاصلاحات التي بداها محمد علي فقد اطلقها على اساس اخلاقي . ولانه كان ينتمي الى الفئات التي مستها الاجراءات الصارمة التي اتخذها محمد علي للقضاء على الفئات التي كانت تشكل ركائز لتشتيت السلطة واضعاف الحكومة المركزية ، كالملتزمين وكبار حائزي الاراضي واثرياء المشايخ والمماليك ، فقد وجه الجبرتي اتهاماته الى محمد علي ووصفه بأنه اعتدى على « مساتير الناس ، واغلق البيوت المفتوحة لان في طبعه داء الحقد والطمع والتطلع لما في ايدي الناس وارزاقهم » . وهذا يدلنا على ان الجبرتي لم يستطع تفسير التغييرات التي قام بها محمد علي ، في سبيل السير بمصر على طريق التقدم السريع، ولم يصدر الحكم الصحيح عليه بأنه حاكم مستبد مستنير كانت محاولاته تهدف لتوفير المال الضروري لبناء الدولة الحديثة التي تحمل عبء تنفيذ المشروعات العامة والتي كانت البلاد في امس الحاجة اليها . لكن من حق الجبرتي علينا ان نذكر انه لم يكن متحاملا دائما ولا يتردد بعض الاحيان في الاشادة ببعض الاعمال الجليلة التي قام بها محمد علي ، فمن ذلك ذكره ان « الباشا كان يشجع ابناء مصر على

---

(٩) احمد عبد الرحيم مصطفى ـ عجائب الآثار في التراجم والاخبار لعبد الرحمن الجبرتي ـ ص ٥٥٨ ـ تراث الانسانية تموز ١٩٦٦

(١٠) الجبرتي دراسات وبحوث ـ ص ٣٦ .

التعليم وكان له دور كبير في ارسال البعثات من الشباب الى الخارج كي يتثقفوا ويتعلموا ووصف ممحد علي بأنه ، له « مندوحة لم تكن لغيره من ملوك الزمان » وان يكن قد تحفظ بقوله « فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » (١١) .

ويدلنا حكم الجبرتي على اعمال محمد علي ، انه لم يلحق النهضة الفكرية التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر وأسهم فيها شيخ ازهري من معاصريه هو الشيخ حسن العطار الذي احتك بالفرنسيين وآمن بأن مصر لا بد لها ان تتغير ، وهذا لا يكون الا بالاستفادة والاخذ بالعلوم التي كانت سببا في النهضة الاوروبية .

ويتضح انتماء الجبرتي للماضي من تفسيره للاحداث في اطار الغيبيات الدينية . وقد فسر دخول الفرنسيين الى مصر ، وفشل محاولات المماليك والمصريين في صدهم عن الدخول بقوله عن النتيجة انها كانت « امرا مقضيا محتما لا يرد بالدعاء » .

ووصف الحملة الفرنسية ، من وجهة نظر تفسيره لتعاقب الاحداث ، بأنها « بلاء يمتحن به الله المصريين ويعاقبهم بها على سوء فعالهم وظلمهم لبعضهم البعض » ، ويعقب على هذا الاستنتاج ويدعمه بالآية الكريمة : « وما كان ربك مهلك القرى بظلم واهلها مصلحون » .

وعندما تحدث عن خروج الفرنسيين من مصر ، بمساعدة الانجليز والاتراك ، عمد ايضا الى التفسيرات الغيبية ، دون ان يشرح المصالح الاساسية التي ادت الى اخراج الفرنسيين من مصر ، حيث برر ذلك بقوله « واذا تأمل العاقل في هذهالقضية يرى فيها اعظم الاعتباراتوالكرامة لدين الاسلام ، حيث سخر الطائفة الذين هم اعداء للملة هذه ، لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم . » وذلك مصداق للحديث الشريف وقول الرسول الكريم « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . (١٢)

والتمعن بالاحكام والنتائج ، التي كان يصل اليها الجبرتي عن طريق التمعن والتفكر ، يقودنا الى تمييز خطه المنسجم مع معطيات مسلم ينتمي الى تراث ديني ضخم فسرت الكثير من احداثه واحداث العالم ـ طبقا له ـ على ان المشيئة الالهية كانت وراء الاحداث ونتائجها . وطبقا لهذه النظرية التي تربط تفسير النتائج بالارادة الالهية ـ يعتبر التاريخ ذا فائدة بما يقدمه للبشر من العبر وبما جرى للغابرين وان ينتصح البشر بأحوال الماضين من اسلافهم . « وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل على مثل احوال الهالكين من الامم المذكورة السالفين ويستجلب خيار اقوالهم ويجتنب سوء اقوالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب

---

(١١) الجبرتي مؤرخا ـ الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ـ الجبرتي دراسات وبحوث ـ ص ٣٩ .

(١٢) المرجع نفسه ـ ص ٤٠ .

الباقي » ... « ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتأسى اذا لحقه مصاب ويتذكر بحوادث الدهر » . (١٣)

لماذا كان تفسير الاحداث التاريخية الجسيمةالتيمرت علىمصر فيعصر الجبرتي يرتبط بالغيبيات المطلقة التي آمن بها الجبرتي مع انه عاصر ، فترة ، بدء النهوض الثقافي والعلمي مع بداية القرن التاسع عشر وبعد انحسار الاحتلال الفرنسي ؟

ان المتصفح لكتابات الجبرتي تتضح امامه صورة الصعوبات التي وقفت امام انطلاق التفسير الواقعي والمنطقي للتاريخ ، خاصة امام مؤرخ معاصر للاحداث ، وكان معنيا مباشرة بنتائج هذه الاحداث . فهو عايش فترة قلقة من تاريخ مصر كانت تحمل مخاض المستقبل . فترة تميزت بتنافس كل من انجلترا وفرنسا في السيطرة على مصر ، هذه المنافسة التي فتحت الباب امام زحف المؤثرات الغربية على البلاد في فترة الاحتلال الفرنسي مباشرة ، وفي اصلاحات محمد علي بصورة غير مباشرة . وهل يعقل لمؤرخ كالجبرتي ، ينتمي الى مدرسة المؤرخين المسلمين التقليديين ، ان يرحب بزعزعة الاوضاع القائمة التي ألفها الناس وتكيفوا لها ؟ ان الجبرتي لم يدرك ، كأغلب معاصريه، ان الحملة الفرنسية والافكار التي نشرتها في البلاد كان من نتائجها ازالة العزلة القسرية التي فرضت على البلاد منذ الفتوحات العثمانية ، وفككت الاطار العقائدي الموروث ذا الوجهة الدينية الذي كان يدفع المجتمع المصري بكل عاداته وتقاليده . ولذلك اعتبر الجبرتي انه يمثل الحلقة الاخيرة في كتابة التاريخ بالطريقة المتبعة عند المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى ، مع الاخذ بالاعتبار حالة الركود والجمود الثقافي الذي عانت منه مصر كغيرها من الولايات العثمانية والتي انعكست بصورة واضحة على كتابات الجبرتي . ورغم كل هذه السلبيات التي نلمسها في طريقة الجبرتي في تفسيره للتاريخ فلا بد ان نذكر ان الاهمية الكبيرة لكتابات هذا الشيخ تظهر بوضوح عندما نعلم انها تكاد تكون المصدر المحلي الوحيد الذي كتب عن تاريخ مصر ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر والربع الاول من القرن التاسع عشر ، بدقة وشمول منقطعي النظير ، ولا نعثر في المصادر التاريخية المعاصرة لها على مايرتفع الى قيمتها. من هنا تبرز اهمية مكانة الجبرتي كأول مؤرخ مصري يظهر بعد ابن اياس ، بعد ان كادت مصر تخلو من المؤرخين الكبار ما يقرب من ثلاثة قرون .

II كيف صور الجبرتي الصراع الفكري بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ؟

من الحتميات التاريخية ان الطاقة المحركة لجميع الامم ، والتي تدفعها للسير قدما نحو تحقيق سبل العيش الكريم ، تكمن في الصراع الفكري بين الاجيال المتعاقبة على مر العصور. ويتمحور هذا الصراع حول ملاحقة ركب التطور والتقدم البشري ، وبقدر ما يكون هذا الصراع حضاريا وفكريا بقدر ما يملك القدرة الفعالةوالصحيحة التي باستطاعتها ان تطيح برواسب

(١٣) نفس المرجع .

الجمود المتراكمة فوق الاسس الحقيقية للتراث وجوهره الاصيل . واصالة هذا الجوهر وعمقه ومقداره الحضاري يظهر بوضوح في هذا الصراع عندما يستطيع ان يفجر الطاقات الكامنة لدى الاجيال الصاعدة لرفع تلك القواعد الصحيحة من التراث واعلاء صرحها . وقد عاش الجبرتي هذه المرحلة الصعبة من الصراع الفكري الذي اجتاح ، ليس مصر والبلاد العربية فحسب ، بل العالم اجمع ، ولم يكن الصراع الذي عايش الجبرتي وطأته محليا عربيا ، بل عاش الصراع الفكري الذي انطلق من اوروبا وامتدت حدود صراعه الى العالم العربي عبر مصر ، ففي عصر الجبرتي كانت اوروبا ، وبالتحديد فرنسا بعد الثورة الفرنسية ، قد حطمت جمود العصور الدينية وعندها انطلقت مع عصر النهضة في ازالة الطغيان السياسي للعصر الوسيط . وشاهد الجبرتي بعض الانوار المتألقة من هذا الصراع الفكري الاوروبي على ارض مصر ، التي كانت في مرحلة ترقب وشيك الحدوث لطلائع صراع فكري رهيب بين القديم والحديث ، من اجل الانعتاق من قيود الجمود الفكري والركود الحضاري نحو آفاق ارحب من الحرية ، المتألقة بأنوار المعرفة التجريبية العقلانية ، المنفلتة من السلبيات والغيبيات التي خدرت عقول اجيالنا العربية ردحا من القرون الخوالي . وقد عايش الجبرتي تطور هذا الصراع الفكري عبر اجيال ثلاثة :

الاول الذي عاصر الطبقة الاخيرة من المماليك في مصر . **والثاني** الذي واجه الحملة الفرنسية على مصر . **والثالث** الذي تمثل في عصر محمد علي ومحاولاته في ارساء اسس الدولة الحديثة .

وانقسم كل جيل من تلك الاجيال الثلاثة وسط هذا الصراع الفكري الى قسمين :

القسم الاول تمثل في التعصب لرواسب العصور الوسطى وسحرها واستمرارها في غيبيات مطلقة .

والقسم الثاني اندفع في حماس منقطع النظير الى التجديد والخروج من طلاسم السحر الى نور العلم وقيادة العقل المتمثل في الفهم السليم .

ثم شرح الجبرتي موقف الاجيال المعاصرة له من التاريخ بقوله : « ولم تزل الامم الماضية ، من حين اوجد الله هذا النوع الانساني ، تعني بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا عن خلف ، الى ان نبذه اهل عصرنا واغفلوه وتركوه واهملوه وعدوه من شغل البطالين » .

هنا يبرز الجبرتي سبب الصراع الفكري عند معاصريه، ويعزوه الى الاهمال المتعمد للتاريخ، ويقول ان هذه الاجيال ، بابتعادها عن تاريخها ، قد ابتعدت عن نهج الحضارة الواضح. واتخذت لنفسها طريقا كان ينحدر بهم ، ويظنون لجهلهم وغفلتهم انهم الصاعدون . ثم بين الجبرتي بسخرية لاذعة طلائع الصراع الفكري بينه وبين تلك الاجيال الجامدة قائلا : « ولعمري انهم لمعذورون وبالاهم مشتغلون ، ولا يرضون لاقلامهم المتعبة في مثل هذه المنقبة ، فان الزمان انعكست احواله وتقلصت ظلاله ، وانخرمت قواعده في الحساب ، فلا تضبط وقائعه في دفاتر ولا كتاب ، واشغال الوقت في غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ليس له استرجاع الا ان

يكون مثل الحقير (يعني الجبرتي بذلك نفسه وذلك عن سخرية من اولئك الجاهلين بأهمية التاريخ) منزويا في زوايا الخمول والاهمال ، منجمعا عما شغلوا به من الاشغال ، فليشغل نفسه في اوقات خلوته ، ويسلي وحدته بعد سيئات الدهر وحسناته » . (١٤)

ونزل الجبرتي معترك الصراع الفكري ولم يتعصب ولم يتحزب بل كان يحمل في نفسه امانة المؤرخ ملتزما بقول الحق ولو على نفسه ، فاعتزازه بكتابه وما بذله فيه من جهد لم يجعله يعمى عن الاعتراف عن نفسه بقوله « هذا مع اعترافي بقصور الباع وفتور الطباع في قوانين المعاني العربية ، ودواوين المثاني الادبية » .

وفي ضوء هذه الخلفية التاريخية انطلق الجبرتي يصور مراحل الصراع الفكري بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . وازدادت آفات الجبرتي خبرة بالفكر القديم لانه رجع اليه ، وبالفكر الجديد على عهده لانه عايشه وفهمه ، فضلا عن قوة الصلة التي كانت له مع العامة والخاصة وخبر الجبرتي فنونا متعددة من نتاج الفكر الوسيط والحديث ومارس بعض اعمالها التطبيقية من رياضة التصوف وحسابات النجوم . وصار تصويره للصراع الفكري بين القديم والحديث تصوير خبير عالم ببواطن الامور ومكامن الحقيقة .

وبيّن الجبرتي عوامل واسباب الصراع الفكري على عهد الطبقة الاخيرة من حكم المماليك في مصر ، وحصر الصراع في هذه المرحلة حول قضيتين كبيرتين . افرزت كل منهما مظاهر خطيرة اصابت المجتمع على اختلاف طبقاته : احداهما الانحراف الفكري في حركة التصوف والاخرى قضية التخلف بين قادة الفكر . (١٥)

ا ـ الانحراف الفكري في حركة التصوف

بين الجبرتي ان العدو الاوحد للتفكير العقلي هو الجمود الديني الذي حمله المتصوفة على عهده في القرن الثامن عشر . هؤلاء تظاهروا بالعبادة التي اقصتهم عن العيش الجاد ، المتمثل بالكفاح من اجل تحسين وضع المجتمع ككل ، بغية التفرير بالعامة . فكثر الادعياء وصار كل خامل ضعيف في العلم يلجأ الى التصوف . ثم اندس هذا الفريق المنحرف بين الناس وروجوا لتأويل القرآن . وحرص الجبرتي ان يميز بالصورة التي قدمها بين اولئك المنحرفين وبين تقاة المتصوفة ، وتمثل ذلك في اسهابه في وصف مواكب اولئك المنحرفين من دعاة التصوف وقدرتهم على اجتذاب الكثير من الناس من طبقات واعمار مختلفة ، نساء ورجالا واطفالا . وعاثت هذه الطبقة من ادعياء الصوفية في المجتمع فسادا وفحشا من السير عراة في الطرقات الى المشي المخجل الذي قلده العامة تبركا بهم .

وما صورة الشيخ « صادومة » التي قدمها الجبرتي الا نموذجا عن خطورة هذه الطبقة

---

(١٤) انظر ـ الدكتور ابراهيم احمد العدوي ـ الجبرتي دراسات وبحوث ـ ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(١٥) نفس المرجع ـ ص ٧٥ .

المتأخرة من المتصوفة ومفاسدهم ، فقد اوهم العامة ، بطلاسمه ، انه قادر على مخاطبة الجن مشافهة ؛ وتعمق الجبرتي في تصوير هذا النموذج البشري للشيخ « صادومة » واظهر كيف ان الشيخ حسن الكفراوي الذي تولى منصب افتاء الشافعية كان من اتباع الشيخ « صادومة » ، وما آل اليه هذا الوضع من تأثيره المباشر على العامة .

وبدا الصراع ضد هؤلاء المنحرفين من المتصوفة ، والذي اسهم فيه ثلاث فئات من المجتمع ، تحدث عنها الجبرتي باعتبارها حملة الفكر الحديث ، والتي ضمت اصحاب العقول المتفتحة من امراء المماليك والعلماء ومن عامة الناس ايضا . وتولى نفر من العلماء من اصحاب الفكر الجديد في هذه الفترة تحذير الناس من تلك المفاسد . كما اوضح الجبرتي اشتراك عامة الناس في هذا الصراع الفكري ضد المنحرفين من المتصوفة الى جانب رجال السلطة والعلماء . وابرزت الصورة التي اعطاها قابلية العامة للاصلاح في هذه المرحلة الاولى من الصراع الفكري وابرز استعداد هذه القاعدة الجماهيرية لان تسير وراء المصلح الصادق . (١٦)

ب ـ التخلف بين قادة الفكر :

وهنا يطرح الجبرتي عملية الصراع الفكري عند مجموعتين رئيسيتين من قادة الفكر ، احداهما جماعة العلماء الذين تمسكوا بالعلوم التقليدية وحاربوا كل تجديد في الفكر ، والثانية جماعة العلماء الرسميين الذين تولوا مناصب حكومية كبيرة في البلاد واشغلوا علمهم لتثبيت ومناصرة اصحاب السلطان ، عن طريق محاربة كل جديد يهدد السلطان ويخلخل المراكز القانونية التي يستمدون منها سلطتهم ، وما يتبع ذلك من زوال للنعيم الذي يرتعون به والامتيازات التي يملكونها . اما طريقة الجبرتي في عرض هذا الصراع فتمثلت باختيار النماذج البشرية التوضيحية لكل من اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . واوضح تحجر علماء العصور الوسطى ، الذي انعكس في عقول الملايين الذين تأثروا بهم ، فاعطاهم طابع الجمود والافق الضيق وعدم مواكبة التطور ، والتقوقع في نظرة سلفية متأخرة رجعية . اما النماذج التي عرضها عن دعاة العصر الحديث فكانت تدعو الى تحصيل العلم الذي يجدد حيوية الامم وابنائها وانبعاث حضارتها ، ويحرر العقل من السحر والاوهام والاباطيل ، مع عرض المصادر الاولى لتراث الآباء والاجداد عرضا سليما يجعل منه قاعدة للانطلاق والانبعاث الحضاري الصحيح المتطور ، لا منطلقا للقيود والاغلال والسير الى الوراء والتطلع الى الماضي بطريقة انبهار سلبية .

وكان تفنيد الجبرتي للعلماء التقليديين ، في طريقة منهجهم ، يتمثل بتوجيه اتهامات لهم بأنهم اقتصروا ، في جهودهم ، على الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل في العقائد دون اجتهاد ، وبيّن قيمة الاجتهاد في هذا المضمار وقال : انهم نسوا ان الاجتهاد كان السبب في ازدهار الحياة الفكرية ايام مجد المسلمين . والعمل الرئيسي لديهم انحصر في متابعة الحواشي دون تبصر او فهم ولم يتناولوا علم الحساب الا لمعرفة الاحكام الشرعية في الميراث . والعلوم التي ظهرت اهميتها ،

(١٦) انظر المرجع نفسه ـ ص ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ للتوسع في هذا الموضوع .

نتيجة للصراع الفكري في اوروبا ، من جبر وهندسة وعلم للطبيعة وكيمياء فلم تكن جديرة بأن تسمى علوما . وركز هنا الجبرتي هجومه على جهل العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، وجعلهم السبب المباشر في فساد احوال العامة في انحاء البلاد ، لانهم لا يعرفون كيف يرشدون البلاد ولم تكن لهم القدرة في التمييز بين الحق والباطل والحلال والحرام ؛ مقدما لنا كعادته نماذج لما ارتكبه هؤلاء العلماء من مفاسد وما نالوه من عقاب . وقدم لنا صورة احد العلماء الذي طلق امراة من زوجها الذي كان غائبا وعندما عاد الزوج قدم شكوى ضد هذا الشيخ الى الامير يوسف بك الكبير الذي اشتهر بحرية الفكر ومحاربة اصحاب البدع من العلماء فألقى القبض على هذا الشيخ وحبسه مع اصحاب الجرائم . فثار نفرمن زملائه المشايخ وذهبوا الى الامير مع جماعة سماهم الجبرتي باسم « المعممين » لحرصهم على لبس العمائم الضخمة . ودارت المناقشة بين هؤلاء المعممين والامير وهنا يبلغ الجبرتي قمة الروعة في صورة سجلها للصراع بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث . استهل احد المعممين المناقشة بقوله « ما هذا الافعال وهذا التجاري » ؟ فقال له : « افعالكم يا شيخ اقبح » فقال له هذا قول في مذهب المالكية معمول به . ثم اشتد غيظ الامير وتقدم نحو الشيخ الجداوي الذي فسخ عقد الزواج ، صارخا في وجهه « والله اكسر راسك » وعندئذ اشتدت دعاة الرجعية من المشايخ ، وسب احدهم الامير مذكرا اياه بأصله الاول ايام جاء رقيقا بين جماعة الرقيق ثم اشتراه سيده قبل ان يصبح من كبار المماليك قائلا له : لعنك الله ولعن اليسرجي (تاجر الرقيق) الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك اميرا . ولم ينته هذا الصراع الا بواسطة فرضت الحل الوسط باطلاق سراح الشيخ من سجنه . واثارت هذه الحادثة ثائرة عدد من العلماء من انصار التجديد فتناولوا بسخرية اولئك « المعممين » ونقل الجبرتي ذلك في قصيدة للشاعر حسن البدري الحجازي والتي هاجم فيها « المعممين » قائلا :

عمائما كبروا وكما قد وسعوه لكي يسودوا
وتحت اباطهم روايا تسعين كراسا او تزيد . (١٧)

وقدم الجبرتي نماذج اخرى من جهاد العلماء التقدميين الذين انتمى اليهم والده الشيخ حسن الجبرتي ، الذي لم يقصر اهتمامه على العلوم الدينية فقط ، بل تناول العلوم بمفهومها الاشمل والاوسع والتي شملت كل انواع العلوم التطبيقية . ولاجل اشتغاله بهذه العلوم كان يملك ، الآلات الفلكية من الكرات النحاسية ، وآلات الارتفاع والميالات والارصاد والاسطرلابات والارباع والعدد الهندسية وادوات الصناع بأغلبيتها » .

الى جانب علماء الدين المتخلفين تناول الجبرتي ايضا التخلف الذي ظهر في صفوف العلماء الرسميين الذين عقدوا اواصر المودة مع رجال السلطة بغية الدخول في الحياة الدنيا وما تشمله من نعيم دنيوي زائل . وقدم الجبرتي عدة نماذج من هذه الطبقة ، من بينها شيخ كان

(١٧) انظر ـ الدكتور ابراهيم احمد العدوي ـ ص ٨٠ .

يصرف جل وقته في جمع المال بينما يستغل القليل منه بالمذاكرة ومجالسة العلماء . اما الصفات التي عرف بها هذا الشيخ فهي التعالي على ابناء جنسه . . . واصراره على لبس القاوون بعمامته الخضراء تشبها بأكابر الامراء . وزاد من تعاظم هذا العالم ان زملاءه اذا اقتربوا منه ، وقبل مسافة ذراعين ، ضموا ثيابهم تأدبا ، ثم حيوا ومدوا ايديهم لتقبيل يده او طرف ثوبه . . وكان يقتصر في رد تحيتهم على كلمة « خير . . خير ».

وهاجم دعاة الفكر المتجدد هذه المظاهر الفارغة من الغرور المتعالي لدى العلماء الرسميين ، ونددوا بهم في كل مكان ، وبهذا تركت المرحلة الاولى من الصراع الفكري صورة واضحة عن نوعية بدء هذا الصراع ، واعطتنا بذلك صورة جلية عن ان اجيال العصور الوسطى وان بدت متعنتة طاغية فان اسسها قد ابتدأت بالاهتزاز وان جيل التجديد وان بدا صوته خافتا فقد بدأت اولى خطوات مسيرة التحرر التي لا تسير الى الوراء ابدا وفق حتمية التطور . (١٨)

ثم تأتي المرحلة الثانية من الصراع والتي تمثلت في الالتقاء بين الافكار الجديدة التي تولدت عن صراع المرحلة الاولى وبين نتاج الفكر الاوروبي الذي خبره المصريون مباشرة بعد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣ هـ ـ ١٧٩٨م . وقد عرف الجبرتي هذه السنة بقوله « وهي اولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة . . . واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع » .

وتركز الصراع في هذه المرحلة حول مسألتين اساسيتين احداهما مدى الارتباط بين العقيدة والعمل ، والثانية كيفية التجاوب مع الحضارة الاوروبية .

ولمعالجة هاتين المسألتين سلك الجبرتي نهجا جديدا، فقد اعتنى، الى جانب التراجم البشرية التي قدمها نماذج لهذا الصراع ، بسرد الاحداث المهمة التي تلقي الاضواء الكاشفة على هذا الصراع ، مع قلم واع حر وجريء استطاع ان يطرح المسألة برمتها وان يكون ظلالها والوانها .

وبدأت القضية الاولى مع احتكاك المصريين بالفرنسيين ، الذين لم يدخلوا مصر كحملة عسكرية فقط ، بل رافقهم الكثير من العلماء المتخصصين الذين عملوا مع المجموعة العسكرية بتنسيق وانسجام تام . وتركز همّ المصريين في الوصول الى افضل الطرق الناجعة لمواجهة الغزو العسكري المتمثل بالجنود الفرنسيين والتحدي الحضاري المتمثل بنمط وسلوك العلماء الفرنسيين . ولا تكفي السواعد البشرية لصد الحملة العسكرية فقط بل يقتضي مواجهة التحدي الحضاري بعقل سليم وفكر متفتح ، ليتم رد التحدي بنفس اسلوبه كي لا يتيه الرد في متاهات الضلال والتخبط والفشل الذريع . ولهذا السبب تركزت عملية الاعداد لهذا الصد في اصحاب الفكر المتجدد ، فقاموا بمحاولة توفيقية بين العقيدة الاسلامية وبين الاسلوب الذي يجب ان يتبعوه لصد هذا الغزو . ورأوا ان تسمكهم بمبادىء الشريعة الاسلامية لا يحول بينهم وبين

(١٨) انظر ـ عبد الرحمن الجبرتي ـ دراسات وبحوث ـ ص ٨١ ـ ٨٢ ـ الدكتور ابراهيم العدوي .

مواجهة الاوضاع التي انقلبت فجأة بمجيء الحملة الفرنسية ، واكدوا ان هناك تأثيرا متبادلا بين العقيدة والعمل . فالعقيدة تعتبر الحث على العمل من صلب دعوتها ، وفي المقابل تكون نتيجة العمل اثباتا للعقيدة يطبع النفس عليها ويرسخ اوتادها . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ــ قرآن كريم » .

واعتمد الجبرتي في شرح وعرض هذه المرحلة من الصراع على الوثائق ، التي نقلها بأمانة وصدق لتكون دليلا على وجهة هذا الصراع ، فأورد صورة المنشور الاول الذي اعلنه نابليون بونابرت على اهل مصر بعد استيلائه على الاسكندرية ، والذي تضمن افكارا جديدة عن مفهوم العقيدة ، وكيف ان هذا المفهوم الجديد يختلف عما هو عرف قديم ، والذي اساء استخدامه المماليك في مصر . وكان لا بد لهذه الافكار الجديدة من ان تدخل حلبة الصراع المرير ، طوال عهد الحملة الفرنسية في مصر مع رواسب الماضي ، ولو انه استفيد منها واتيح قبولها بحذر شديد. وتجلى ذلك بهروب العلماء الكبار من مصر ، وبرفض الشيخ الشرقاوي استعمال الزي الفرنسي المتمثل باللون الاحمر والابيض والكحلي ، والذي حاول نابليون ان يضعه على كتف الشرقاوي بحضور العلماء . وتجلت قمة هذا الصراع في رمي الشرقاوي للطيلسان على الارض وتغير لونه واحتداد طبعه . لانه اعتبر قبول ذلك مضيعة لقدر علماء المسلمين عند الله وعند عامة المسلمين .

وانتقل هذا النوع من الصراع الى العامة الذين رفضوا ان يضعوا الشارات وخاصة احداها المعروفة بالوردة . وقال الجبرتي في ذلك « فانف الناس من وضعها ، وبعضهم راى ان ذلك لا يخل بالدين اذ هو مكروه » . وكشف الجبرتي بعد ذلك عن قيام لون جديد من التفكير الوطني القومي الذي جاء وليد الاحتكاك بمفهوم الفرنسيين عن السلطان ، وهنا اخذت العقيدة طابعا جديدا تمثل في الحرص على المظهر الوطني والديني في الوقت نفسه ، وتجسدت هذه الافكار بالثورات المستمرة التي قام بها المصريون طيلة فترة احتلال الفرنسيين لارضهم . حتى الجبرتي نفسه عايش هذا الصراع واعتملت في نفسه كل هذه الانفعالات والاحاسيس ، فكان كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » اصدق صورة عن هذه الافكار وهذا الصراع . (١٩)

وقد اثار الجدل حول المفهوم الجديد للعقيدة قضية جد مرتبطة بها ، او قد تلحق المساس بالعقيدة عند بعض العلماء . وهي كيفية التجاوب مع الحضارة الاوروبية . فحتى هذا العصر بقيت العقيدة الحارس الامين لتطور الفكر ، وحينما ارتبطت بالعمل بينت ان الاخذ بالحضارة الاوروبية لا يتعارض مع جوهرها ، وذلك في النواحي التي تزيل جمود الماضي وتفك اغلاله وتؤدي بالمجتمع الى التقدم العلمي واسترداد طريقه المجيدة .

لقد افاق العلماء على حقيقة لا تقبل الجدل ، وهي ان الحضارة الغربية اصبحت حضارة عالمية ، وان كل حضارة تريد الوقوف بجانبها او الانتصار عليها لا بد وان تأخذ بنفس الاسباب

(١٩) نفس المرجع ــ ص ٨٣ ــ ٨٤ .

التي أدت الى ازدهار وتفتح الحضارة الاوروبية، من حيث الاعتماد على العلم والحرية السياسية.

وكان للجبرتي الفضل الاكبر في حمل هذا العبء ، فانبرى يوضح اهمية التفكير العلمي وضرورة الاخذ به ، الى جانب اعجابه بأهل وطنه وهم يقومون بالثورات ضد المحتلين الفرنسيين ، وعبر هذا الاعجاب كان يأسف لحدوث تدمير الاجهزة التي لا تقدر قيمتها « الا عند من يعرف صنعتها » . ويبدو اعجاب الجبرتي بالتقدم العلمي وفائدته من الوصف المطول الذي اورده عن زيارته للمعامل الخاصة بالابحاث والتي اقامها الفرنسيون في القاهرة . وروى الجبرتي هذا اللقاء الحضاري بين اجيال العصور الوسطى والعصر الحديث دون ان يخجل من السخرية مما حدث له من رهبة وهو يشاهد الهوة الواسعة بين الفكر العلمي في وطنه وبين ما وصل اليه الفرنسيون من تقدم (٢٠) .

ثم عاد الجبرتي بعد استعراضه للتطورات الجديدة الخاصة بمشاهداته في مركز الابحاث الفرنسية الى تناول التراجم مرة اخرى ، يستكمل بها مراحل الصراع الفكري بين القديم والحديث المستجد مع الحملة الفرنسية، واوضح ان التجاوب الحضاري كان سريعا بين اجيال الفكر الحديث لاقبالهم على العلم الغربي وضرب لذلك امثلة عندما تناول ترجمة الشيخ حسن العطار الذي اعتبر من دعاة التجديد في عصره والذين قرروا وعملوا على ان تستلهم مصر الحضارة الاوروبية طريقا صحيحا لاعادة سيرها على طريق التقدم الصحيح المثمر .

المرحلة الثالثة من الصراع الفكري :

واخيرا دخل الجبرتي بكتاباته التاريخية ، شخصيا ، حلبة الصراع الفكري في هذه المرحلة، اذ عمد الى تغيير اسلوبه في الكتابة فلم يقتصر على سرد الاحداث وتناول التراجم لهذه الفترة ، بل انبرى يجاهد بقلمه ، دون ان يأبه لما يلحق أمثاله ، من اصحاب الفكر الحر والقول الجريء ، من اضطهاد وظلم .

ودار الصراع الفكري في هذه المرحلة حول فكرتين متناقضتين ، ما زالت تدور حولهما حتى الآن معالم التكوين السياسي والحضاري للعالمين الاسلامي والعربي . وكانت الخطوة الاولى ، بدء الدعوة الى الاصلاح الروحي والانطلاق نحو آفاق العصر الحديث بأمان ، وذلك على النحو الذي قامت عليه الدعوة الوهابية التي عاصرها الجبرتي وتحمس لها ورافق تطورها. اما الدعوة الثانية فقد تركزت في تبني معركة الاصلاح المادي، والتي اعتبرتها الطريق الصحيح الذي لا بديل عنه في ملاحقة ركب الحضارة العالمية ، وقد اعطى الجبرتي مثلا لذلك جهود محمد علي في بناء دولته بمصر . وزاد في حيوية تصوير الجبرتي لهاتين القضيتين المعاصرتين له ، ان احداث كل منهما تشابكت مع الاخرى والتقت وجها لوجه في صراع التجأ فيه الفكر الى السلاح والقلم معا .

وبرع الجبرتي في تصويره للصراع الذي خاضته الدعوة الوهابية والتي جسدت بأفكارها

---

(٢٠) نفس المرجع – ص ٨٥ .

مذهبه السلفي وفكره الحر في نفس الوقت . كما قام بتدوين الافكار الجديدة التي نادت بها هذه الدعوة عند دراسته لاحداثها التاريخية ، وقد تميز عرضه بالتشويق البعيد عن الجفاف الذي يصاحب عادةالدراسات الفلسفية حولالعقائد ، فأوضح كيف ان الوهابيين اتخذوا من فكرة التوحيد في العقيدة والتوحيد في التشريع سلاحا لهم وهم يخوضون معركتهم ضد الجمود والتحجر . وقامت فكرة التوحيد في العقيدة على ابطال البدع التي تسربت الى الاسلام ، كأعمال المتصوفة وزيارة الاضرحة والطبل والزمر في الموالد والحج ، والعمل على اعادة طهارة الحياة الاسلامية الاولى وتعاليمها السليمة ، اما فكرة التوحيد في التشريع فبينت ان قفل باب الاجتهاد في آخر ايام العصور الوسطى كانالسبب المباشر ، الذي قاد الى هذا الجمود والتقليد ، وكان دافعا للجري وراء الفتاوى من كتبالسابقين وطرحت فكرة الخلاص من هذه الجهالة ، والمتمثلة في العودة الى الاجتهاد في فهم العقائد ؛ لانه ليس لاحد حجة في الدين سوى الله سبحانه وتعالى وكلام الرسول الكريم . ونتج عن افكار الدعوة الوهابية هدم البدع التي ادخلها الناس زورا على الاسلام ، واختتم الجبرتي تصويره لتطور الحركة الوهابية مبينا ان اعداءها من اصحاب السلطان العثماني والعلماء الرسميينوبسطاء العامة المضللين قد تكتلوا ولجأوا الى القوة والبطش للقضاء على هذه الدعوة ، وكان محمد علي اداة التنفيذ في القضاء على هذه الحركة التي اعتبرها الجبرتي تمثل الفكر الحر في العقيدة والدافع الى مسايرة الجديد دون الخروج عن جوهر الدين . ولذلك انطلق الجبرتي يؤكد اصالة هذه الحركة وقوة دعاتها برغم اسر البعض منهم في مصر . وتناول الجبرتي في نهاية كلامه مصير الحركة الوهابية على يد محمد علي، متخذا هذا المصير فرصة انتقل منها الى معالجة الدعوة الثانية التي اطلقها هذا الحاكم وما سلكه في سبيل الاصلاح المادي .

وكان الجبرتي صريحا وواقعيا في الاحكام التي اطلقها على محمد علي . وجاءت احكامه صورة صادقة للمبادىء التي اعتنقها وللمثل التي آمن بها وعمل جاهدا على تحقيقها . فوصف بصدق ، كما يعتقد ، النهج الذي سار عليه محمدعلي . وكان هدف الصراع بينهما هو الوصول الى البناء المثالي ، دون الاطاحة بالقديم اطاحة حاقد اعمى ، او الجري وراء الجديد دون وعي وادراك، فأشاد الجبرتي بما قام به محمد علي من اصلاح مادي شمل جميع المرافق العامة وخاصة مرفق التعليم وتطبيق المناهج الحديثة فيه . ولكن ساءه ان محمد علي ، في سبيل تحقيق اهدافه ، لجأ الى اساليب ابعدته عن الفضائل المحمودة . فهاجم الجبرتي الاخطاء والمظالم التي رافقت الاصلاحات المطبقة ، كالاساليب الملتوية التي انتهجها محمد علي على الصعيدين السياسي والاقتصادي . وختم الجبرتي كلامه عن اصلاحات محمد علي بتأييد اصلاحاته دون ان ينسى ذكر عدم العدالة وعدم الشهامة في اسلوب تطبيقها .

وقد لحق الجبرتي ، من صراحته ، الاضطهاد الذي يمنى به المفكر الحر في نظام غير ديموقراطي ، فقد عمد محمد علي الى تدبير مؤامرة لقتل ابن هذا المؤرخ ، عندما علم بالانتقادات اللاذعة التي وجهها الجبرتي اليه وكان ذلك عام ١٨٢٢م . وانطوى الجبرتي نتيجة لهذه الفاجعة

في حياته حتى توفي عام ١٨٢٥ م ، تاركا صورة زاخرة بالالوان المتناقضة والخطوط المتحركة للصراع الفكري بين القديم والحديث . (٢١)

النهج الذي اتبعه الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية :

ما هي القوانين التي تحكم عالم التاريخ عند الجبرتي ؟ من الصعوبة الاجابة على ذلك قبل ان نستعرض الخبر عنده ، ومعظم اخباره لا تحمل سوى التحقيق او التفسير القليل لان الجبرتي كان يصوغ احكامه بكلمات مقتضبة تعتبر احكاما خلقية ، من « ظلم » (٢٢) و « سخافة » (٢٣) او « خزعبلات » ، او ، وهذا الامر « شنيع جدا » . (٢٤) وهذا الشخص لعين او كافر . (٢٥) ومعظم عباراته لا تعطينا رايا علميا بالحدث ، ولكن تعتبر استكمالا للخبر وتلوينا لصورته . ومع ذلك لا يسعنا الا ان نقر بيقين ان الجبرتي قد ترك لنا وثيقة من اخطر الوثائق في تاريخنا الحديث كله ؛ لانها ، الى جانب المادة التاريخية النادرة عن المرحلة التي تؤرخ لها في معالمها السياسية والاجتماعية ، فهي وثيقة هامة تعكس فكر النخبة من المفكرين المصريين ، في تلك الفترة ، وآرائهم وتعليقاتهم على النظم السياسية والاجتماعية التي توقفت عن ان تكون استمرارا تقليديا للظواهر المصرية في العصور الوسطى ، ومثلت فترة بدء التغيير الشامل الذي كان مألوفا ؛ وقدر للجبرتي ان يعيش لحظات الاحتدام التاريخي التي كانت السبب المباشر في تغيير الظواهر وانقلاب الاوضاع في مصر ، فرصد حوادثها وسجلها ، واعتبر كتاباه وثيقتين فكريتين شديدتي الاهمية بالفتي الخطورة ، اذ يعكسان رؤية فكرية محددة لهذه السنوات التي تغيرت فيها مصر تغيرات ما تزال فاعلة في اوضاعها الراهنة ومؤثرة فيها .

لذلك يعتبر تصنيف الجبرتي مع الاخباريين، بشكل مطلق ، خطأ ؛ ولكننا ، مع افتراض صحته ، فهذا لا يعني ان الاخباريين لا يملكون المنهج او الموقف . فالطريقة التي كتب بها الجبرتي ، في اختيار اخبار معينة وترك البعض الآخر ، وحرصه على الترجمة لافراد معينين وترك الآخرين يعكس وجهة نظر ضمنية ، وعلى سبيل المثال فان الجبرتي « في مظهر التقديس » لم يذكر حوادث شهر ربيع الاول ١٢١٦ هـ (يوليو ١٨٠١) م وشهر ربيع الثاني من نفس السنة . وقد عاد في كتابه الثاني « عجائب الآثار » فأورد حوادث الشهرين متكاملة ــ بحسب جهده في التجميع ــ ولا شك ان حجب الاخبار ثم ايرادها يعتبر موقفا له . فقد كانت كلها تسجيلا لقبائح وجرائم ارتكبها العثمانيون عندما دخلوا القاهرة مرة ثانية . وبصرف النظر عن دلالة هذا فيما

---

(٢١) انظر ــ عبد الرحمن الجبرتي ــ الدكتور ابراهيم العدوي ــ ص ٨٦ ــ ٨٧ ــ ٨٨ .

(٢٢) عجائب الآثار ــ الجبرتي ــ الجزء الاول ــ ص ١٦ ــ ١٨ .

(٢٣) عجائب الآثار ــ الجبرتي ــ الجزء الثالث ــ ص ١٧ ــ ٤٣٥ .

(٢٤) عجائب الآثار ــ الجبرتي ــ الجزء الاول ــ ص ٢٢٥ .

(٢٥) معظم صفحات مظهر التقديس .

يتعلق بموقفه من العثمانيين . فهو يعكس دلالة ان الخبر ليس دائما عرضا لواقع اصم ولكنه اختيار من هذا الواقع ، وما يتحكم في الاختيار هو « وجهة النظر » او « النهج » . وقد يكون ترتيب ابحاث الكتاب نفسه ذا دلالة ، فالجبرتي الذي يعتبر العلماء « امناء الله في العالم وخلاصة بني آدم ، هم خلاصة خاصة الله في خلقه » . (٢٦) يحرص دائما ان يقدم تراجم من يموت منهم على تراجم الامراء مهما علا شأنهم ولا يخلطهم بغيرهم . (٢٧) وهنا لا بد لنا من وقفة فالمؤرخون المسلمون كانوا يهدفون خلال كتاباتهم الى ابراز نظرتهم في المجتمع والامة فالبلاذري ، مثلا ، كان هدفه يرتكز على ابراز الارستقراطيةالعربية ، التي تدور حولها كل الاهتمامات في الامة ، من اجماع وافتاء وتمركز للسلطة ؛ ومن هنا تبرز منهجية الجبرتي في تراجمه ، فنقطة الثقل لمجتمعه هم العلماء : العلماء الذين ينصرفون الى الاجتهاد على اسس شرعية صحيحة ، والعلماء الذين ينصرفون الى مناهج العلوم التطبيقية. وهنا ندرك ان نهج الجبرتي فيالاصلاح كان يتمحور دائما حول العلم والعلماء الذين اعتبرهم الشعلة المضيئة للاجيال ، والضرورة القصوى لتقدم واصلاح اي مجتمع .

كما ان الدافع الاولي لكتابته التاريخ كان نزولا عند طلب شيخه الزبيدي . فلم تكن كتاباته عن اعلام المائة المنصرمة يوميات ، كما قال بعض من تناولوا الجبرتي؛ اذ اضطر الجبرتي ان يتناول تراجم هؤلاء الاعلام من المصادر ليستكمل بها تاريخ القرن الثالث عشر . كما ان تدويناته اليومية عن الاحداث التي عاصرها ، عاد الى تبويبها وتنقيحها ما بين سنة ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ . ولعل هذه العودة افادته كثيرا لان بعض المظاهر التاريخية التي عاصرها لم تكن قد استكملت ملامحها اثناء التدوين ، وانما بعد فترة زمنية لاحقة . ولعل الجبرتي استفاد من هذه الفترة الزمنية ، الفاصلة بين التدوين وبين اعادة التنقيح والتبويب ، في التخلص من التأثير المعاصر والفجائي للاحداث ومكنه ذلك فيما بعد من استخلاص نتائج ، ربما لم تكن واضحة او مفهومة امامه حين حدوثها ، فاستطاع ان ينقل الاخبار في افق اكثر رحابة ، يتيح كشف ملامح وجهة نظره والقوانين التي ينظر الى التاريخ بمقتضاها ، ويعطينا مادة للبحث في منهج الجبرتي ؛ مع الاخذ بعين الاعتبار جانب المعاصرة الذي اثر الى حد كبير في رؤية الجبرتي لظواهر عصره ، والذي عكس موقفا سياسيا اكثر مما عكس رؤية منهجية ، واذا كان صحيحا ان اي رؤية منهجية هي في النتيجة النهائية رؤية سياسية ، فان علينا دائما ان نحذر من ان تفسر السياسة المنهجية العلمية . ولكي نصل الى الرؤية الصحيحة لمنهجية الجبرتي لا بد لنا من ان ندمج رؤيته المنهجية في موقفه السياسي ـ مع وضع عامل المعاصرة والاثر المباشر في الاعتبار ـ .

والمدخل الطبيعي لفهم موقف الجبرتي مؤرخا وسياسيا هو في تصنيفه ضمن البيئة التي عمل من داخلها ؛ وانه ، في حكمه على ظواهر عصره التاريخية ، يجب ان لا يغرب عن بالنا كونه

---

(٢٦) ابراهيم جلال بك ـ من يوميات الجبرتي ـ القاهرة ـ مطابع اخبار اليوم ـ ص ١٣ (عجائب الآثار) .

(٢٧) انظر ـ الجبرتي دراسات وبحوث ـ الاستاذ صلاح عيسى ـ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .

ابنا لطبقة العلماء المصريين الاسلاميين في ذلك العصر وممثلا لها . وكانت هذه الطبقة نموذجا اجتماعيا شديد الفاعلية والتأثير ، بحكم مصالح طبقية واضحة اثرت عليهـــا الاحداث تأثيرا مباشرا ، سواء اصلاحات محمد علي ام طغيان العلماء الرسميين . ولذلك فهو يقف اجتماعيا في صف المستثمرين المرتبطين بالحكم المملوكي بنفعية اقتصادية ، اذ كانت لهم حقوق التنظر على اراضي الاوقاف الخيرية والحق في ان يكون لهم التزامات الى جانب المماليك . وكذلـك كانـوا يملكون حق الاستثمار التجاري ؛ فوالد الجبرتي كان يتعاطى التجارة واجداده وجداته مـن المشهود لهم بالثروة التي تتضاعف بالزواج الذي يتم عن طريق اضافة الثراء على الثراء . وكذلك ذكر الجبرتي ان الشيخ سليمان الجوسقي ــ زعيـم ثـورة القاهرة الاولى علـى عهـد الحملة الفرنسية ــ « كان يخزن الغلال ويبيعها في سني الغلوات بالسواحل والرقع بأقصى القيمة» .(٢٨) وهذا نموذج للعديد من المشايخ المنتمين لهـذه الطبقة .

ومن الطبيعي ، وكبار المشايخ ينتمون الى الشرائح المستثمرة في المجتمع ، ان يمارسوا نفس ما يفعله المستثمرون للوصول الى مضاعفة الثروة . ولهذا كان كبار علماء الازهر يشكلون جزءا من الظاهرة المملوكية في بعض جوانبها الاستثمارية . فالامراء المماليك ، لتنافسهم بـين بعضهم البعض ، كانوا بحاجة لدعم جماهيري يؤمنه لهـم العلماء عن طريق تأثيرهم الاجتماعي ولذلك كثرت هدايا امراء المماليك الـى العلماء فتضاعفت اهمية هؤلاء السياسية فشكلوا طبقة حاكمة ثابتة ، (٢٩) من بين مهماتها تهدئة الجماهير الشعبية في بعض الاحوال لحسـاب النظام القائم .

واذا كان الازهريون ــ وهم الطبقة المفكرة المصرية اذ ذاك ــ محصورين ذهنيا في حدود ضيقة ، همهم مضاعفة الدخل ولو عـن طريق استغلال الشعب ، فان درجة التخلف المصري قد صورها الجبرتي بقوله عـن علمـاء الازهر انهم « افتتنوا بالدنيـا وهجـروا مذاكـرة المسائل ومدارسة العلم الا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية » (٣٠)

وبهذا تكون السمة العامة للفكر المصري في تلك المرحلة هي التدهور العـام فـي التفكير لدرجة الوقوع في اسر الخرافة . وقد انصب نقد الجبرتي للمشايخ على تدهورهم العقلي ، والذي وصف سببه بأنه اقبالهم على الدنيا . فهل يبدو هذا السبب هو المبرر الحقيقي لهذا التدهور المفزع ؟ بالطبع ان ذلك لا يبدو المبرر الحقيقي . ففي نظرة الجبرتي للظواهر الطبيعية في عصره لم يستطع ان يرتفع عن مستوى عصره ، وظل مرهقا بهذا العصر لا يستخلص العبرة الباردة ولا الحقيقة الاجتماعية . (٣١)

---

(٢٨) ــ عجائب الآثار ــ ج ٣ ــ ص ٤١٦ ــ ٤٢٦ ــ ص ٣٧٨ . (وانظر الجبرتي دراسات وبحوث ص ــ ١٤٨) .

(٢٩) عجائب الآثار ــ ج ٣ ــ ص ٢١٩ .

(٣٠) عجائب الآثار ــ ج ٣ ــ ص ٢٢٠ ــ وانظر الجبرتي ــ دراسات وبحوث ــ مقالة الاستاذ صلاح عيسى ــ ص ١٥٠ــ١٥٢ .

(٣١) خليل شيبوب . عبد الرحمن الجبرتي ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٤٨ ــ ص ٩٩ .

والخط العام الذي يحكم مفهوم الجبرتي للتاريخ هو النظر اليه ، باعتباره محكوما بحتمية جبرية تحقق الارادة الالهية ، ولا شك انه تبنى هذا المفهوم لانسجامه مع ثقافته الدينية وتعصبه السني وانتمائه الصوفي الروحاني ، ولا شك ان اطارا من الفهم الاسطوري قد احاط بهذا كله نتيجة للتدهور العقلي الذي كان سائدا في عصره ، فهو في مقدمة « مظهر التقديس » يشير الى امكانية التنبؤ بالوقائع التاريخية من حركة النجوم . (٣٢) لكن هذا الفكر يتوارى ، الى درجة ما ، في المقدمة النظرية التي كتبها لعجائب الآثار ، والتي تكشف بدرجة ادق مفهومه للتاريخ ، وهو يؤكد فيها بأن الانسان حيوان اجتماعي « اذ خلق الله الانسان ضعيفا لا يستقل وحده بأمر معاشه لاحتياجه الى غذاء ومسكن ولباس وسلاح ، فجعلهم الله يتعاونون في تحصيلها وترتيبها بأن يزرع هذا لذاك ويخبز ذاك لهذا ، وعلى هذا القياس تتم سائر امورهم ومصالحهم . (٣٣)

وعنده ان موضوع التاريخ هو احوال هذا المجتمع فهو « علم يبحث فيه عن معرفة احوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وانسابهم ووفياتهم . لكنه يحفظ للشخصيات البارزة مكانها في هذا الموضوع مثل « الانبياء والاولياء والعلماء والشعراء والسلاطين وغيرهم » . (٣٤)

وهدف قراءة التاريخ هو العظة والاعتبار او قياس الحاضر على الماضي . وجوهر نفعية التاريخ يتمثل في « حصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز العاقل عن مثل احوال . . . الهالكين من الامم المذكورة ويستجلب خيار افعالهم ويجتنب سوء اقوالهم ويزهد في الفاني ويجتهد في طلب الباقي . » (٣٥)

وحركة التاريخ لدى الجبرتي تتجه الى تحقيق العدل ، والله « هو العادل الحقيقي الذي جعل لكل شيء قدرا » والانسان لا يستطيع ان يعدل اذا تجاوز اوامره ونواهيه . والقانون السياسي هو كتاب الله ، والميزان الذي يحكم به على الناس هو العدل ، ولان مباشرة هذا الامر بواسطة الله « هو على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة » فانه قد « استخلف فيهم خلائف وضع في قلوبهم العلم ــ اي القرآن ــ والعدل ــ اي الميزان ــ ليحكموا بها بين الناس » والنظام الاجتماعي كله يفسد في راي الجبرتي اذا تنازع هؤلاء الخلفاء في وضع الشريعة (٣٦) .

والذي يسهر على تطبيق العدل في نظر الجبرتي «خمس فئات تتوزع في نظام طبقي، وهي ــ الانبياء والعلماء وولاة الامور واوساط الناس والقائمون بسياسة نفوسهم » وبما ان النبوات قد

---

(٣٢) مظهر التقديس ــ الجزء الاول ــ ص ٢٠ .

(٣٣) عجائب الآثار ــ الجزء الاول ــ ص ١٣ .

(٣٤) عجائب الآثار ــ الجزء الاول ــ ص ٦ .

(٣٥) عجائب الآثار ــ الجزء الاول ــ ص ٦ ــ وانظر للتوسع في ذلك ــ الجبرتي دراسات وبحوث ــ ص ١٥٤ ــ الاستاذ صلاح عيسى .

(٣٦) عجائب الآثار ــ المقدمة ــ ص ١٣ ــ وانظر الاستاذ صلاح عيسى ــ نفس المرجع ــ ص ١٥٤ ــ ١٥٥ .

ختمت برسالة محمد . فان العلماء وهم الطبقة الثانية يقومون بدور الانبياء « وهم ورثتهم » .

واخذ هذه الفئات باطار واسع يفسر كل الظواهر التاريخية عند الجبرتي ، ولذلك عندما اعاد النظر في عصره ، صور ان الانهيار والتدهور المتمثل بالانقلاب الحاد الذي نتج عن الثورات على عهد الحملة الفرنسية وما احدثه محمد علي هو نتيجة لتدهور العلماء، ولذلك انصرف يصور، بشغف منقطع النظير ، حالة تدهور العلماء لانها السبب الرئيسي في جمود المجتمع ومن ثم الوصول الى مرحلة الانهيار التام . ولهذا ، وانطلاقا من فرضيته ، انهار التاريخ بانهيارهم وذهبت مصر عندما ضاعوا . وتطبيقا لهذه الرؤية فان الجبرتي اعتبر وفاة الصوفي الامام محمد بن سالم الحفاوي الشافعي سنة ١١٨١هـ هو بداية « نزول البلاء واختلال احوال الديار المصرية » . (٣٧)

والجبرتي ، منطلقا من مفهومه للتاريخ ، يأخذ كل المظاهر التاريخية في عصره على هذا المحمل . صحيح ان العمل المنظم المتواصل المقرون بالعلم واجب وضروري للوصول الى الاحسن ، لكن كل ذلك محكوم بسنن الهية تكون جزاء احيانا لما يقوم به الناس من تصرفات تبعد او تقرب من العدل الالهي .

ورغم هذه السلبية ، التي ربط بها الجبرتي مفهومه للتاريخ وفهمه واستعماله لظواهره، فانه يعتبر المؤرخ الوحيد في عصره الذي تناوله الشرق والغرب واعتبره ثروة تاريخية غنية لتاريخ مصر واصدق صورة تعبيرية عن صراع التغيير الذي اجتاح مصر في القرن التاسع عشر .

(٣٧) انظر ـ الجبرتي دراسات وبحوث ـ الاستاذ صلاح عيسى ـ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .